

نَظَرْتُ فَالْتَفَتْتُ مِنْهَا إِلَى أَحَدٍ عَلَى سَوَادٍ رَأَيْتُهُ فِي بَيَاضِ
يَوْمٍ وَلَّتْ مَرِيضَةَ اللَّحْظِ وَالْجَفِّ مِنْ وَلَيْسَتْ دُمُوعُهَا بِمِرَاضٍ (١٦٩)

ومع أن سيرته تقول إنه قد عرف الحب في عصره ، وإنه تدله في حب
مغنية فارسية ، إلا أن الملاحظ أن هذا الحب لم يضرب عميقاً في نفسه ، ولم
يجعله ينتفض به شعراً ويتهد به قصائد ، والمعروف أن حبه للفارسية كان فتنة
منه لصوتها ، ثم إنه لم يكرر في رحلاته المتعددة هذا الحب ولم ينصب من أجله
الشباك محافظة منه على سمعته ووقاره .

وصف الطبيعة :

الطبيعة الحية والصامته تشغل مساة كبيرة من شعر أبي تمام ، بل إنها من
أدواته الفنية التي يرسم بها الإنسان والحياة ، فالطبيعة التي رآها أبو تمام وعاشها
متنوعة وغزيرة فقد كان فيها الجمال والجلال والعدم والوجود ، ولقد عاشت في
نفسه بصفة خاصة طبيعة بلاد الشام التي عرفت طفولته ، ولقد كان من الذين
أكدوا أن الحنين يكون دائماً لأول منزل ، وبالإضافة إلى هذا فقد كانت عناصر
الطبيعة القديمة تعيش في داخله كالبكاء على الأطلال وكركوب المطايا ، ولكنها
في الغالب تحولت في شعره إلى رموز للجمود والحركة والعدم والوجود ، كما أنه
أضف إلى الطبيعة لمسات لم تكن موجودة من قبل ؛ فقد جعلها تفكر وتعيش
وتموت ، وفي كثير من الأحيان مزجها بالإنسان مزجاً ذكياً بحيث أصبحت
معادلاً للإنسان وصراعاته ، وفي ضوء هذا لم يقف فيها عند المبهر والملون
والمزخرف والمسقسق ، وإنما وقف عند الربيع والصيف والبستان والصحراء
والأخضر واليابس والمطر والجفاف .

فهو قد يبدأ قصائده المادحة — على غير العادة بها — على نحو ما عرفنا من
تعرضه الزاهر للربيع في قصيدته التي أولها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمْرَمُرٌ وَعَدَا الثَّرَى فِي حَلْبِهِ يَتَكَسَّرُ (١٧٠)

(١٦٩) المصدر نفسه ٢ : ٣٠٩ .

(١٧٠) ديوان أبي تمام ٢ : ١٩١ .